الهيمنة الثقافية وتداعياتها على العمران الجزائر أنموذجا

أ/ عبدالباسط دردور
قسم العلوم الإسلامية ـ جامعة الحاج لخضر ـ باتنة

ملخص:
الحضارة الإسلامية غنية عن التعريف من حيث ريادتها وتقدمها في مجال التعمير والعمارة، من حيث جوانبها الفنية والنفعية المتفاعلة مع المجتمع في أفكاره وتصورات بيئته وثقافته المعبرة عن الانتماء للأمة، مما جعلها تؤدي دورا رياديا في إطار الفكر المناسب له ولعمارته. ولذلك يأتي هذا البحث الذي يعالج موضوع العمارة والتعمير في بلادنا من حيث إنها تعرضت للهيمنة والتشويه والتغريب في فترة الاستعمار، واستمر تكريس هذه الوضعية المزرية حتى بعد الاستقلال الوطني، مما كان لها تداعيات سلبية بالغة الأثر على هوية الأمة وعلى سلوكيات الفرد والمجتمع والأسرة، وتراجعت قيم المجتمع والأمة أمام فلسفة العمارة الغربية المهيمنة على كل المجالات وإفرازاتها التي أضرت بهوية وثقافة والمجتمع والأمة وما زالت. مع إعطاء خلاصة في نهاية البحث على نموذج حي من بقايا آثار العمارة المحلية في الجزائر، والمتمثلة في قرى بني ميزاب في الجنوب الجزائري، شاهدة على عبقرية المعماري المسلم ومدى ارتباطه بتعاليم الإسلام، بقدر ما كانت عمارته وتصميماته أيضا متجاوبة مع بيئته ومجتمعه.

Résumé :
La civilisation islamique est très marquée par son architecture spécifique où elle a fait épanouir le domaine de la reconstruction et de l'architecture, en termes d'aspects techniques et utilitaire en réaction avec les perceptions de la communauté exprimant l’appartenance à la nation. Cela lui conférait un rôle important dans le cadre de la pensée appropriée.

Ce travail, par conséquence, traite le sujet de l'architecture et de la reconstruction de notre pays. D'où elle avait été exposée à la domination, la distorsion et l'aliénation dans la période coloniale,

même après l'indépendance nationale. En effet, elle a eu des répercussions négatives ayant un impact grave sur l'identité de la nation, le comportement de l'individu et la famille. Les valeurs morales de la société ont régressé en face la philosophie de l'architecture occidentale envahissant tous les domaines par ses produits nuisant gravement l'identité et la culture de la communauté et la nation. Les ksars de Beni-Mizab dans le sud de l'Algérie, étant un modèle étudié, témoignent du génie architectural musulman se rapportant aux enseignements de l'Islam. Cette architecture et sa conception s'est harmonisée avec l'environnement et la société islamiques.

تقديـم:

إن ميدان العمران والهندسة المعمارية ميدان من ميادين الثقافة، ولذلك كان موضع هيمنة وغزو سواء أثناء فترة الاستعمار أو بعد الاستقلال أيضاً. حيث نجد أن النفوذ السياسي الغربي في العالم الإسلامي عموماً والجزائر خصوصاً رافقه نفوذ وهيمنة ثقافية، وخاصة في مجالات التعمير والهندسة المعمارية، سواء بتشويه طراز العمارة المحلية التي تمثل شكلا من أشكال العمارة الإسلامية في الجزائر،أو بنقل الأساليب المعمارية في أوروبا إلى البلاد المستعمرة، وبخاصة الأبنية العامة والثكنات والقصور، وانتقل ذلك إلى المساكن والعمائر الخاصة، سواء من الناحية التقنية الفنية، أو من الناحية الهندسية والجمالية، أو من ناحية الوسائل ومواد البناء. ولذلك نرى الطراز الكولونيالي والنمط المعماري الغربي الذي انتشر في الغرب عموما، انتقل إلى الكثير من الأبنية التي انتشرت في البلاد العربية على امتداد سواحل المتوسط الجنوبية، على حساب أصالة وثقافة طراز فنون العمارة الإسلامية وتقاليدها[1].

أولا: واقع المنشآت المعمارية في البلاد العربية

لقد أسهمت القيادات بقسط وافر بعد فترة الاستقلال في الهيمنة الثقافية الغربية على الطابع المعماري لمدننا، بسبب عدم تذوّق القيم الجمالية في عمارتنا الإسلامية الأصيلة، وبسبب الأخذ برأي المستشارين في ميدان التعمير والهندسة المعمارية الذين ليس لهم درايةبالأبعاد الثقافية والاجتماعية والدينية والنفسية والاقتصادية والبيئية في فنون مجالات التعمير والهندسة المعمارية،فاستقدموا مهندسين معماريين من الغرب ملأوا المدن بإنشاءات تجارية وأهلية أستنسخوها عن مثيلاتها في باريس ولندن وروسيا، فبدت هذه الأبنية في أغلبها لا تتفق مع الظروف المناخية ولا مع القيم الثقافية

والاجتماعية والدينية للمجتمع، فالمباني تشكّل مجموعات مصممة من الخرسانة غير المناسبة للمنشآت والخالية من عناصر التلطيف، وهي بذلك تمتصّ أشعة الشمس نهاراً بينما تكون بطيئة التبريد ليلاً، وتجاهلوا في بنائها أبراج الرياح وتوجيه منافذ المبنى من أجل الحصول على أقصى قدر من التهوية، وأهملوا الأفنية المكشوفة وسط المباني واستبدلوا بها أنظمة التكييف المركزي التي نراها في الإنشاءات الغربية المعاصرة، وعندما يحدث أي عطب تقني تجد هذه المباني غير صالحة للسكنى[2]. ومع ذلك فإن الهيئات المسئولة عن الإسكان والتعمير والاجتماع والتربية عندنا، لا يوحي حالها إطلاقاً أنها بصدد البحث عن بديل أو حتى التساؤل في هذا الشأن أو الإلمام بعناصر المشكلة، خاصة مع تنامي الحرص على ما يسمى بمواكبة العصر وكأن العصر قابع بكل عناصره في منطقة جغرافية واحدة اسمها الغرب.

وهناك سبيل آخر أثر على هوية العمارة والعمران في بلداننا نجده يتمثل في ذلك العدد الكبير من المعماريين المسلمين الذين يذهبون إلى الغرب لينالوا تدريبهم، حيث لا تتوافر في بلدانهم فرص تعليمية مناسبة للمهنيين والفنانين الجماليين ومؤرخي الفن والعمارة، كذلك الأمر في الغرب نادراً ما نجد مقررات تدريبية في العمارة الإسلامية، حيث نجد مقررات العمارة بصفة عامة تزوّد الطالب المسلم بقدر من الخبرة التقنية وبعض التذوّق لأعمال **(فرانكلولويدرايت)**، **(لاكوربوزييه)** و**(لويخان)**، بينما لا نجد في تلك المقررات إلاّ القليل من المعرفة أو التذوّق للمظاهر التي حققها المعماريون المسلمون، بل وقد لا نجد أياً منها[3].

كما دخل إلينا الطراز المعماري الغربي تحت عنوان الانفتاح على الغرب، وأصبحت القيم العقارية تخضع لنوع خاص من المباني يتبع المظهر الغربي. وتفسير هذا الانفتاح كان بدوافع الحداثة المبكرة، والتي قامت في بلادنا على مبدأ القطيعة مع التراث، فكانت النتيجة أن أخذ التعليم المعماري يتبع المناهج الغربية،والتي يعنى فيها بالتماثل والفخامة في التصميمات بدلاً من دراسة الموضوعات الواقعية الحقيقية التي تواجه العمارة في الشرق عموماً[4]. ومع سرعة التحوّل الاقتصادي والسكاني والاجتماعي التي أحدثتها الطفرة الاقتصادية المذهلة من عائدات النفط، دفعت إلى تكثيف وتسريع الحركة العمرانيـة، فكانت التصاميـم المستوردة الجاهزة هي أقصى ما يستطيع أن يسد به المعماري الناشئ حاجة مجتمعه الملحة، في غياب التخطيط لهذه العملية، وساعد في هذه التبعية المعمارية تفجر رغبة المستهلك المكبوتة

بمتابعة الاستمداد من ثقافة الغرب في مجال عمارة حديثة، لم يفطن لمخاطرها التي أودت به إلى التخلي عن هويته وتقاليده وحاجاته الروحية والمادية. كما كان لابتكار المواد الإنشائية الجديدة من إسمنت وحديد، واختراع أدوات العمارة الضخمة و ظهور الطاقة الكهربائية، أثره في ظهور الثورة المعمارية التي غذتها مبادئ الحداثة في الغرب[5]، وقد تغيرت في بنيتها وفي وظائفها وفي شكلها، مما أبعد إلى حد كبير حضور الإنسان مصمماً وبناءً ومستهلكاً، عن مجال العمارة الحديثة، فلقد أصبح الإنسان ضيفاً كسولاً على المستحدثات التي حلت محل فكره وذراعه وذوقه، وبدلاً من أن تقوم الآلة والمواد الحديثة على خدمة الإنسان روحاً وجسداً، قامت على خدمة الصناعة كرأس مال وتجارة، وعلى خدمة المدينة بوصفها مجالاً لحركة السيارة ووسائل النقل السريعة والضخمة، ثم بوصفها مقراً للمصانع والتجارة، وغياب الإنسان كحضور مادي وروحي، وكمقياس جمالي، عن المدينة الحديثة والعمارة، أوصل العمارة الحديثة إلى البناء في الفراغ، فلم يعد من فاصل بين عالم الإنسان وعالم السيارة، وبين فضاء العمارة الإنساني وفضاء المدينة الصناعي الملوث.

وهكذا فإن المقياس الإنساني غاب نهائيا عن العمارة والعمران، وناب عنه المقياس الرياضي[6]، هذا التخصص الذي أدى إلى إبعاد الفرد العادي عن هموم تعقيدات فلسفة العمارة وتصنيعها، فانحصرت هذه في ذوي الاختصاص والصفوة، فأصبح الموقف الفكري منها، من قبل الفرد العادي ومعظم المنظمات الاجتماعية هو التلقي السلبي في أغلب الأحوال، دون أن يكون له دور فكري فعال في تصورها ورؤيتها، وهكذا أصبح المعماري المعاصر يفكر ويتعامل مع تعقيداتها بمعزل عن المجتمع، وأدى هذا العزل إلى جعل القسط الأكبر من أفراد المجتمع أمياً بالنسبة إلى تعقيدات رؤيتها وتصنيعها، كما جعل في المقابل المعماري أمياً بالنسبة إلى المتطلبات الحقيقية لأفراد المجتمع وهمومهم، ولذا فعلى الرغم من الجهد الهائل الذي بذله الفكر المعماري في الابتكار والتنويع، فإن العمارة عامة لا تتعاطف مع وجدانية المجتمع الإنساني بخصوصياته، ولا تؤلف أداة تهيئ له معاشاً إنسانياً، أو أداة يسخّرها ليعبر عن عاطفته الإنسانية، فأصبح غالب الفكر التنظيري المعماري متسامياً عن هموم المجتمع، كما أصبح المجتمع مغترباً عن هموم المعمار، وكلاهما لا مبال بالآخر.

إذن ما نواجهه من خلل في العمارة، ومن تلوّث البيئة المعمارية، هو إشكالية على صعيدين: صعيد الفكر المعماري المتخصص (الأكاديمي المهني)، وصعيد المجتمع المغترب عنها عامة[7].

ثانيا: العمارة وتداعياتها على سلوكيات المجتمع والأسرة

إن التفكّك الاجتماعي والعائلي واستفحال النزعة الفردية في المجتمعات الأوروبية يعززه نمط العمارة الأوروبية الذي يتميز بالشقة المعزولة والغرفة الفردية. في المقابل نجد البيت الجماعي الذي يلتقي فيه أبناء عائلات عديدة وينشؤون فيه معاً، يغرس فيهم روح التضامن الجماعي والتوازن النفسي، وينمّي فيهم قدرات وكفاءات اجتماعية، ويبرز روح القيادة لدى المفطورين عليها، وما إلى هناك من ملكات وروابط اجتماعية لا توفّرها أو تحفّزها أنماط العمارة الغربية، بل إن الغرفة الفردية ربما كانت العنصر الأساس بين العوامل التي سهّلت تلاشي مفاهيم الوقار والاحتشام الجنسي.

إن من مميزات البيت الحضري ذي وسط الدار الذي تتشكل منه المدينة الإسلامية[8]، أنه يتشكّل من مركز غالباً ما يكون فضاءً أي فناءً مكشوفاً يهيكل الفراغات والوظائف فيما حوله ويستقطب جل الحركة من جميع الاتجاهات، وتتمحور حوله الفراغات والوظائف فتتجه الدار نحو داخلها وتنفتح نحو السماء، فتتشكّل بذلك واجهتها الرئيسية وهي رأسية تتستّر عن الفراغ الخارجي في جدران تحدد حرمها، وتفصل بين داخلها وخارجها منافذ حاجبة كثيراً ما تكون على دهليز يصل بين داخلها والدرب، فهو أي البيت الإسلامي ينغلق عموماً على الخارج ويحرر بذلك كل الواجهات من الفتحات العريضة، فيسمح على هذا الأساس للبيت بالتجاور والتلاصق مع البيوت الأخرى. ومن جهة أخرى فإن وسط الدار كفضاء مفتوح مباشرة للسماء يسمح للساكن أن ينعزل عن المجتمع على مستوى السكن، وهو ما يحقق له رغبته الفردية الفطرية وحرمته داخل المجتمع الواسع. وبهذا فإن البيت ذي وسط الدار المنفتح على نفسه والقابل للضم مع عناصر المدينة الأخرى يجمع بين الرغبتين الاجتماعيتين المتناظرتين، الحياة الاجتماعية التي تحقق بها المدنية، والحياة الخاصة التي تميز الفرد بصفته عنصراً مستقلاً عن العناصر الأخرى.

أما على المستوى الحضري التصميمي فإن قابلية الضم للبيت ذي وسط الدار تسمح بالتحام البناءات، وتقلل بذلك الفضاءات العمومية الضائعة وتحتفظ منها بالأقل الممكن والضروري الوظيفي، مثل الشوارع والساحة العامة.. الخ. ونذكر ما لتجاورالبناءات من مزايا اجتماعية، فالإمكانيات العالية

للضم تعطي على المستوى الاجتماعي مجتمعاً حضرياً ملتحماً وذا علاقة جوار عالية، وفي نفس الوقت ينفي مبدأ الطبقية القائمة على التفرقة بين المعسر والموسر، وبنظرة خاطفة إلى كل أنسجة المدن الإسلامية القديمة، يمكننا أن نتأكد من عدم وجود تفرقة فضائية بين الأغنياء و الفقراء، حيث لا توجد أحياء سكنية ينفرد فيها الأغنياء، إنما هم متوزعون على كل الأحياء السكنية، متجاورون بذلك مع الفقراء وجميع الأفراد، وهذا لا يعني عدم وجود مساكن أعلى مستوى من البيوت العادية في المدينة الواحدة، لأن من مبادئ الإسلام ألا يحدد مستوى الرفاهية بحد، غير أن الشريعة كمنبع لهذه المدنية لا تشجع التنافس المادي بين الجيران والتفاخر بينهم على أساس الثراء، بل توجهها بطرق مختلفة إلى التكافل الاجتماعي والتواضع فيما بين الأفراد، ومن هنا نجد الصيغة التوافقية بين هاتين النزعتين: الانفرادية (وفقا للفطرة)، والجماعية (مراعاة للضرورة الاجتماعية)، تتجسد على المستوى المعماري في عدة مبادئ، ونجد في النسيج الحضري بالمدينة الواحدة بيوتا مختلفة الحجم والاتساع، يوحي بعضها برفاهية أصحابه وآخر ببساطته، وكثيراً ما يكون الصحن الداخلي بنقوشه وسعته أحد تلك الرموز الفنية. أما من الخارج فإن التجانس الكلي بين البيوت وعدم تعالي بعضها عن بعض، تترجم الضوابط التي وضعتها الشريعة الإسلامية لمنع التنافس العمودي من جهة، وتزيين الواجهات لإعلان الثراء والسعة من جهة أخرى[9].

ثالثا: فلسفة العمارة الغربية وإفرازاتها السلبية على هوية وثقافة المجتمع

على العكس من فلسفة العمران الإسلامي، نجد العمران الغربي، مثلا (**الفيلا**) وضرورة انفتاحها على كل الجهات أو على اثنين منها على الأقل، توهن إمكانية الضم مع البناءات الأخرى، مما يزيد من الفضاءات الخارجية ويهلهل بذلك النسيج الحضري، ولا يفوتنا هنا ذكر ما لهذه الخاصية من أثر عكسي على الحياة الخاصة للساكن، حيث تعرضه للأنظار الخارجية، وهو ما تعاني منه كل مساكننا، الجديدة منها والموروثة من عهد الاستعمار. فعندما اضطر الناس بعد رحيل الأوروبيين إلى السكن في المدينة الأوروبية وجدوا أنفسهم فجأة ضحايا أزمة عمرانية ثقافية عميقة لم يكونوا يتوقعونها، لأن إقامتهم بالمدينة الأوروبية كانت تتم بذهنية وعادات وقواعد السكنات المحلية التقليدية وحتى بعقلية البدوي. فغياب وسط الدار والسطوح الخاصة في الشقق الحديثة دفعهم إلى التحايل وتعويضها بالسطوح العامة وسلالم العمارات التي حولوها إلى فضاء عائلي حميمي إضافي ملحق بغرف الشقة، وحتى مدخل

العمارات أطلقوا عليه تسمية السقيفة أوالصحن، في محاولة لتقريبه من سقيفات وصحون الديار التقليدية لتقليص الشعور بالغربة عمرانياً، في حين لم يكن أمامهم من حيلة سوى إعادة ضبط العادات والتقاليد وفق ما تسمح به الفضاءات العمرانية الجديدة. كما أدى عدم أخذ المعماريين الأوروبيين بعين الاعتبار لمبادئ أخلاقية روحية في تصميماتهم مثل السترة والحجبة وداخلية الجمال، التي تؤدي حتماً إلى عدم الاستغناء عن وسط الدار- لأن مشاريعهم كانت موجّهة للأوروبيين – إلى زعزعة استقرار العلاقة بين الرجال والنساء داخل العائلة. فضرورة الانفتاح على النوافذ الواسعة والشُرفات الكبيرة التي تفرضها الحاجات المنزلية، خصوصاً وأن هذه النوافذ والشُرفات تعتبر المصدر الوحيد للتهوية ونور الشمس، أفرزت توترات بين الأزواج والحريم كلما اضطر هذا الأخير لتجفيف الغسيل واستنشاق هواء العالم الخارجي من الشرفات، وكثيراً ما انتهت هذه التوترات إلى الطلاق أوإلى مراكز الشرطة والمستشفيات أو حتى إلى صراعات عائلية قبلية. فالانتقال من النموذج العمراني الإسلامي إلى النموذج الغربي أثر على مختلف جوانب حياة الناس وتسبب في اختلالات كبيرة وعميقة لم تنته بعد.

هذا التحوّل العمراني مسّ حتى أشكال الاحتفال بالزفاف والختان والولائم التي فقدت جميعاً الفضاء الملائم لها، واضطر سكان المدن الحديثة إلى البحث عن أشكال جديدة على سطوح العمارات داخل الشقق الضيقة وفي الحومة داخل الخيم أو في الهواء الطلق،أو حتى بقاعات الحفلات التي تعتبر آخر اجتهاد في مواجهة الأزمة في هذا المجال. ثم إن شكل العائلة التقليدية التي كانت تضم الجد والجدة وزوجاتهم والأحفاد وحتى بعض الأقارب المقرّبين فجّرته المدينة الأوروبية وحصرته تدريجياً في العائلة الصغيرة، غالباً متكوّنة من الزوجين وأبنائهم الصغار فقط، ولم تعد العائلة خلية إنتاج لأن هذا الأخير تكفّلت به المؤسسة، وتراجعت كذلك القيم الأخلاقية كالحياء والاحترام والفتوة والتكافل الاجتماعي أمام متطلبات المدينة الحديثة.

كما أن فلسفة (**الفيلا**) في العمارة الغربية تعبّر أساساً عن النزعة الانفرادية وعدم المبالاة بالجوار، وهو ما أدى إلى نشأة التنافر بين التعابير المعمارية في المدينة الواحدة، بل الحي السكني الواحد، فهي تسمح للساكن أن يذهب إلى حد الإفراط في التعبير عن مستواه المادي، و تفتح في نفس الوقت التنافس الحاد بين الجيران، ومنه تنشأ الروح الانفرادية و الأنانية لتؤدي فيما بعد إلى التفتت الاجتماعي والصراع الطبقي[10]. وللأسف فإن هذه الاختلالات

لم تجد بعد طريقها إلى الحل الدائم والمستقر، بالرغم من تجارب كل من المهندس **حسن فتحي** بمصر والعراقي **رفعت الشحيري** والمغربي **أحمد أمزلاق**، والتي بيّنت كلها أنه يمكن تدارك الوضع والتقليص من حدة الألم الثقافي العمراني والتململ الذي يعيشه سكّان المدن الحديثة التي أصبحت فعلاً مدناً بدون وجه، ومدناً نكرة بلا هويّة .

رابعا: العمارة الإسلامية عمارة من أجل الإنسانية

لقد كانت العمارة العامة والخاصة في ثقافة العمارة الإسلامية هي التي تكون المدينة وليس العكس، وكانت موادها الطبيعية من طين[11] وخشب وحجر مع إطاراتها النباتية وفسقياتها المائية التي تملأ أفنية المسكن وحواشيه من بساتين وحدائق تجعل من المبنى جزءا من الطبيعة، وكان الإنسان يركن إليها بهذا المعنى، لأنه هو نفسه جزء أساس من الطبيعة[12]، ولذلك نجد المهندس المعماري **حسن فتحي**[13] عرف فن العمارة بأنه من أجل الإنسانية، ورفض العمارة التي لا تكون فطرية ونابعة من أهلها، وذات الجذور التي تتحور من التكنولوجيا العامة أكثر من الإنسانية العامة، بمعنى أن فن العمارة هو من أجل الإنسانية، وأن البشر ليسوا كائنات لا تتغير، ويحتاجون إلى فن عمارة يجب أن يتجاوب ويلبي احتياجاتهم النفسية والثقافية كما يلبي احتياجاتهم الطبيعية والفسيولوجية، ولذلك عارض (حسن فتحي) عناصر (العالمية) التي تحاول أن توحد العالم في نموذج عام للحياة مشتق من التكنولوجيا العامة، لأنها كفكرة للتجانس تفقد البشر شخصياتهم، وأكد بأن هناك بالضرورة ثقافات غير قابلة للتبادل، ما يعني أن العناصر الثقافية الأساسية تطورت في تجاوبها مع الحياة النظرية بيئياً ونفسياً، وأن هذه العناصر لا يمكن أن تزرع أو تنقل أو تستنبت من ثقافات أخرى أو بيئات أخرى إذا لم تكن متناسبة ومتوافقة معها من الناحية الثقافية.وهذا بيت القصيد فيما طرحه المهندس حسن فتحي[14].

وعلى ذلك فإن كيفية تنظيم حجرات السكن و تقسيماتها يرتبط بالعلاقات الإنسانية والاجتماعية، فالفن الهندسي مرتبط بالمجتمع، لذلك نجد تباينا بين الإنتاج الهندسي المعماري الأوروبي وبين العربي أو الصيني أو الياباني مثلا، فهناك ارتباط عضوي بين التفكير الديني والهندسة المعمارية منذ القدم، والهندسة المعمارية الغربية[15] لم تقدم للفرد المسلم ولا للأسرة المسلمة المتطلبات الأساسية السكنية التي تلبي حاجاتهم، مثل صون حرمة العائلة[16]، وتسهيل عملية أداء الواجبات الدينية كالطهارة والصلاة[17]، والاجتماعية بحيث تراعي تسهيل التواصل الاجتماعي ورعاية الضيوف...[18]، يقول سيرج

لاتوش في هذا الصدد: ((.. فالتنظيم العمراني الذي يقلّد إلى حد كبير النموذج الدولي للعمران يدمّر العائلة القديمة بالمكان، فالمساكن الشعبية الجزائرية ليست مصممة من أجل سكنى العائلة التقليدية بكل بعدها الواسع وممارساتها، وإنما هي مصممة من أجل زوجين حديثين يعيشان على الطريقة الأوروبية))[19].

وعلى ذلك في تقديري يكون السبيل لمعالجة هذه المشكلات أن يُفتح حوار حقيقي وجاد وصادق لحركة فكرية معمارية تراجع فيها الذات والنفس ومعها قيمومفاهيم العمارة والتعمير، يشارك فيها كل من الفنانين والمعماريين ورجالات الإصلاح والفكر والثقافة والدين، بهدف تشخيص الداء ونقد الواقع وتكامل الآراء لأجل الانطلاق لما هو أفضل، وما هو خير وأنفع، بحيث تفرز فكرا معماريا أساسه المرجعية العقائدية والتصورات الحضارية الخاصة بها، لاسيما إذا علمنا أن الحضارة الإسلامية غنية عن التعريف من حيث ريادتها وتقدمها في مجال التعمير والعمارة، التي أبرز فيها المعماري جوانبها الفنية والنفعية التي كانت في منتهى الإتقان والجودة، وكذلك تفاعله الاجتماعي وتبنيه لأفكار وتصورات بيئته التي كانت من الأسباب الرئيسة التي ارتقت بنوعية إنتاجه المعماري الحاصل وأيضا الحس بالانتماء للأمة الذي جعله يؤدي دورا رياديا في إطار الفكر المناسب له ولعمارته.

خامسا: قرى بني ميزاب نماذج رائدة وعبقرية فذة في العمارة المحلية بالجزائر

على الصعيد العربي والإسلامي فيما أعلم لا توجد مدن ما زالت محتفظة بتراثها المعماري ومستمرة على هديه إلى يومنا هذا سوى مدن بني ميزاب في الجنوب الجزائري (غرداية، القرارة، بني يزقن، مليكه..)، هذه المدن تمثلت فعلا المدينة الإسلامية بكل أبعادها المعمارية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية، حيث يتوسط المدينة مسجد تنتشر حوله المساكن متشابهة في الشكل متلاصقة، يصعب عليك أن تفرق بين منزل غني ومنزل فقير، كما روعي في تخطيطها مقاومة الرياح، والتقليل من مدة إشعاع الشمس أيام الحرارة، ويلاحظ تسقيف بعض الطرقات لأهداف دفاعية، منها أن العدو الراكب إذا تمكن من دخول المدينة فإنه لا يستطيع الوصول إلى المسجد، قلبها ومقر القيادة فيها ومستودع الذخيرة والمؤن، إلا بصعوبة، كما أن بواسطة هذه التسقيفات يمكن لأهل المدينة التنقل على السطوح من حي إلى حي، دون اللجوء إلى الأزقة. (هذا الأسلوب المعماري دوخ السلطات

العسكرية الفرنسية عند دخولها ولعب دورا مهما في تضليلهم)، وربما كان الداعي لهذه التسقيفات الحصول على المزيد من الظل صيفا والوقاية من الرياح والزوابع الرملية، يراعى في مساجد ميزاب البساطة والتقشف والابتعاد عن كل ما قد يشغل المصلي عن الخشوع في عبادته، حتى المحراب فإنه خال من كل زخرفة. المنازل الميزابية كثيرة التشابه، تشمل على طابقين وسطح، عتبة مدخل المنزل يبلغ ارتفاعها حوالي عشرة سنتيمترات، هذه العتبة تقي الدار من دخول الأتربة وخروج الهواء البارد أيام الحر الشديد. يبقى باب المدخل عادة مفتوحا طول النهار، إلا أن المار في الشارع لا يستطيع مع ذلك رؤية ما بداخل الدار، عند تجاوز المدخل الثاني تجد نفسك في رواق يسمى سقيفة، من هذا الرواق تنتقل مباشرة إلى وسط الدار المضاء بواسطة فتحة تصل الطابق الأرضي بالطابق الأول، منها تنزل أشعة الشمس ويتجدد الهواء. غالبا ما نجد أمام مدخل الدار بابا لحجرة صغيرة، داخلها أدراج تقود إلى قاعة استقبال الضيوف الخاصة بالرجال في الطابق الأول، هذه الأدراج المستقلة عن وسط الدار، تجعل حركة الرجال ممكنة من الطابق الأول إلى الخارج بدون إحراج النساء غير المحارم.

وهناك قواعد عامة وموانع في الفن المعماري الميزابي، يلتزم بها كافة السكان، منها أن علو الدار لا يفوق خمسة عشر ذراعا ولا يسمح بإقامة جدار على حدود السطح من الناحية الشرقية أو الجنوبية له كي لا يحرم الجار من ضوء الشمس ضحى وعشية، ولا يحدث أحد نافذة مهما كانت مساحتها إلا برخصة من الجيران، ليحددوا له المكان الذي يمكن أن يحدث فيه هذه النافذة أو الكوة، وعند الضرورة يأذنون له بفتح نافذة مناسبة ومحاذية للسقف، بحيث لا يمكن لأحد أن يطلع منها على سطوح الجيران مهما حاول، لأن السقف يحده، وفي كل بلد يعين أمينان في عرف البناء، إليهما ترفع الشكايات فيما يتعلق بالبناء، إن بني ميزاب لم يشيدوا (قصرا) أو (فيلا) في أي مدينة من مدنهم على غناهم ويسرهم، ورئيس جماعة البلدة لا يمتاز عن سواه لا في ملبسه ولا في مأكله ولا في سكناه، وإذا اتسعت داره فلكثرة عياله. أما عن مواد البناء فهي الحجارة والجبس والجير والرمل غير الصلصالي والنخلة، مما يتناسب مع مناخهم القاري شديد الحرارة صيفا وقارس البرد شتاء. وبما أن الشريعة الإسلامية قد جعلت من الشعائر الدينية الأساسية عبادات جماعية لا تقوم إلا بالاجتماع والالتحام، فالصلاة اليومية مثلاً وصلاة الجمعة وفريضة طلب العلم وغيرها، تتطلب التواجد الجماعي المستمر، وهو ما يفرض وجود

الحياة المدنية ويعضدها، والشريعة مع ذلك جاءت لتضبط بقوانينها الفقهية هذا التعايش المكثف بين السكان، دون أن تضيع بذلك الحقوق الفردية الخاصة، ولذلك نجد في هذا الصدد أن الكثير من العلماء المسلمين صاغوا نظريات عديدة عن المدينة والعمارة وفق هذا المنهج التشريعي، واعتبروا العمران الحضاري ضرورة فطرية للإنسان[20].

الخاتمـــة:

إن زوال الذكريات الحضارية المتمثلة بالتراث المعماري في أكثر مدننا، أفقد الجيل الجديد فرصة التعايش مع هذا التراث مباشرة، بل إن إهمال ما تبقى منه مهلهلاً أورث نفور المعماريين من تمثلها، ولذلك يجب الاعتراف بأن القطيعة الطويلة الأمد التي حدثت بين ثقافتنا وبين تاريخنا الحضاري، أورثت جهلاً بالتراث ورفضاً له، وحققت فرصاً لتسرب الثقافات الوافدة والدخيلة[21]، والتي غيرت شكل الثقافة الحديثة وعبثت بجوهرها، وهكذا أصبحت عمارتنا غريبة عنا، وأصبحنا غرباء في مدننا التي تجردت عن هويتها الأصيلة، وأصبحنا في بيئة هجينة غيرت من عاداتنا ومن أذواقنا وثقافتنا، فحيثما يمّمت يواجهك البناء العشوائي القبيح والمنفر، الذي يخرج عن رغبة الناس الفطرية، والذي تختفي فيه شخصية المدينة وطابعها ودعائم ذاتيتها، فكل شيء يتم دون أي ضابط، مما يقضي على أي جمال ويشجع على إتلاف البيئة الطبيعية وتلويثها، وتدمير كل ما كان مريحا مألوفاً ومحبوباً، بنايات خالية من القيم الفنية، تلك القيم التي تمتع الحواس وتبعث الشعور بالتوافق بين التكوينات المعمارية والبيئة المحيطة، ولو أنك تجولت في أنحاء المدينة لوجدت تشكيلات غريبة من الحوائط الصماء أو البلكونات التي أغلقها أصحابها، كل حسب هواه، وأضاف إليها إضافات ودهنها بألوان، كل حسب مزاجه الشخصي، والنتيجة هدم ما تبقى من التذوق الفني لدى الجميع، والتمادي الجماعي في الإبقاء على هذه الوضعية المعبرة عن الانفصام الذي أصاب شخصيتنا، وعن فقداننا هويتنا، ويزيد المشكلة تعقيداً مع المزيد من المشاكل، إلى مشكلة التلوث العمراني والبصري، مشكلة التلوث البيئي، لما له من تأثير ضار على صحة الإنسان النفسية والفسيولوجية وعلى نشاطه وحجم إنتاجه. والطفل الذي يولد في هذا الوسط لا يعرف – إلا باستثناءات سعيدة – من الفضاء المتحضر إلا المناظر الأكثر تشوهاً. يقول **سيرجلاتوش**: ((إن العالم الثالث سوف يعيش للأسوأ أو للأحسن في نهاية هذا القرن، إن لم يكن في المدن فعلى الأقل في مدن الصفائح، ومعظم سكان العالم سوف يزدحمون

في الضواحي الضخمة المستوحشة قليلاً أو كثيراً، وهذه الصيرورة هي ثمرة الأزمة المجتمعية وخسارة الهوية الثقافية، ولكنها تزيد من تفاقم ظاهرة الاقتلاع من الجذور، وتحدث قطيعة مع الجذور الثقافية الريفية))[22].

إن العمارة لغة مجسدة تحمل دلالات روحية ومادية، وتقوم بوظيفة إنسانية اجتماعية بأساليب مختلفة، شأنها في ذلك شأن اللغة التي تحمل دلالات مماثلة وتقوم بوظيفة إنسانية حضارية، وتتجلى هوية الأمة من خلال وحدة اللغة والثقافة والعقائد، وتعكس هويتها على العمارة والفنون والتراث، وتستمر هوية العمارة باستمرار هوية الأمة، وتتطور بتطورها وتنهض بنهوضها وتتفكك بتفككها، ولذلك فإن البحث عن هوية العمارة هو بحث عن هوية الأمة، وبالمقابل فإن فن العمارة يكشف عن هوية الأمة التي أفرزت هذا الفن أو ذاك.

الهوامش:

[1] **انظر**: د. عفيف البهنسي، ما بعد الحداثة و التراث في العمارة العربية الإسلامية، عالم الفكر، مجلد: 27، ع: 1998/2، ص: 78.مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين،ص:113، دار الفكر دمشق، ط1986/5م.

[2] لقد افتتحت في الإمارات العربية مدينة حديثة بكل مرافقها راعوا في بنائها استخدام التصاميم والمواد المناسبة للبيئة، وقد لاحظوا أن درجة الحرارة في هذه الأبنية تفرق بعشر درجات عن الأبنية في المدن الحديثة الأخرى التي لم تراع مثل تلك التصاميم والمواد. **انظر**: موقع قناة الجزيرة الثقافية.

[3] **انظر**: د. لويز لمياء الفاروقي، الغزو الثقافي في مجال الفنون، الضياء، العدد 1998/8، ص: 36. في حين كان من المفترض الاستفادة من تجارب الآخرين، من حيث أنها تخدم حياة مجتمعاتنا بكل أبعادها الحيوية، سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو دينية أو ثقافية وغيرها، مما يجعل المهندس المعماري يلتفت إلى العلوم الإنسانية والعلوم الدقيقة لارتباطها بالفضاء وإنتاجه المادي والمعنوي حسب تطور المجتمع، وهذا ما حدث فعليا في الغرب، حيث بدأت الحركة الفكرية المعمارية الغربية بمراجعة الذات والنفس ومعها المفاهيم والقيم للعمارة والتعمير، وبدأ النقد لما هو قديم بهدف التجديد وفتح الحوار بين الفنانين والمعماريين وغيرهم من رجالات الفكر والثقافة، بهدف التكامل والانطلاق لما هو أفضل وأنفع، ما جعلهم يصلون إلى تأسيس عمارة جديدة تواكب ثقافتهم وتواكب التطور الفني والتقني، والعملية مستمرة لأجل تغيير الواقع في كل مرة لواقع آخر أكثر تطورا وأكثر توسعا في استعمال وسائل وأساليب جديدة مواكبة للعصر. **انظر**: مرواني مالك، القرآن والتنمية المعمارية، ملتقى الأسبوع الوطني للقرآن الكريم 2006 الجزائر العاصمة.

[4] **انظر**: حسن فتحي، العمارة المعاصرة في مصر والاتجاه القومي، المجلة ، العدد 1957/1، ص: 100.

[5] في إطار العولمة ظهرت بوادر لنماذج معمارية جديدة غير مسبوقة سواء في الشكل أو المضمون مما يشكّل قطيعة (ثيوبولوجية) مقارنة بما أفرزته البشرية من أنساق معمارية سواء في عصر الزراعة أو في عصر الصناعة. **انظر**: د. بهاء بكري، العولمة والعمارة، الأهرام العدد 41490.(2000/7/11).

[6] **انظر**: د. عفيف البهنسي، مرجع سابق، ص: 79. عند الحديث عن الجمالية المعمارية يجب أن نفرق بين أسس هذه الجمالية في المفهومين الإسلامي والغربي، فالجمال الإسلامي يقوم على التوحيد الإلهي والكمال المطلق، أما الجمال الغربي فإنه يقوم على الكمال الإنساني والجمال الرياضي.

[7] **انظر**: رفعة الجادرجي، إشكالية العمارة والتنظير البنيوي، الأهرام، ع/41490 ص: 10-12.

[8] تتسم المدينة الإسلامية بنسق عضوي أي أنه جهاز واحد مترابط الأعضاء، ومتكاملة وظائفها على غرار التكوين العضوي للجماعة الإسلامية والمفهوم البيولوجي للجهاز العضوي، يتشكل هذا الجهاز من ثلاثة عناصر أساسية وهي: **المركز** وهو المسجد الجامع، وهو بمثابة القلب له دور فعّال في توحيد الأعضاء وإمدادها بالطاقة، كما يقوم باستقطاب كل هذه الأعضاء ويقوم بهيكلتها وتنظيم حركتها. أمّا **العنصرالثاني** فهو الخطط وهي بمثابة جسدها، وهي التي يستمد منه المركز ضرورة وجوده وماهيته. أمّا **العنصر الثالث** فهي المسالك والأزقة، وهي بمثابة شريان لا تحدث الحركة إلاّ بها. وهكذا تبدو لنا جسداً واحداً مترابطا ومتكامل الأعضاء، ولكل عضو دور في النظام الحركي للجهاز، وكمنظومة اجتماعية، لكل عضو فيها دور، نجدها كذلك تتوزّع فيها وفق التقسيم إلى مركز وإطار ومحيط ومسالك أهم الوظائف الحضارية بانسجام كامل. **انظر**: د. إبراهيم بن يوسف، الخصائص الإسلامية للمدينة الإسلامية، إشكالية العمران والمشروع الإسلامي، ص: 93-94 . **راجع**: د. محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية (سلسلة عالم المعرفة).

[9] **انظر**: ع/.أورتيلان، الملتقى الدولي حول المدنية والثقافة المغاربية، جريدة (المساء) (1989)، ص: 11. **انظر أيضا**: د. محمد الطيب عقاب، لمحات عن المسكن الأصيل بمدينة الجزائر، جريدة (الشعب) (1999)، ص: 14. **انظر أيضا**: مصطفى بن حموش، الفلا أو أيديولوجية الاستعلاء، (جريدة الشعب) (1989)، ع: 7969، ص: 7. **انظر**: علي زيعور، مكانة الصحة النفسية والعلاج النفسي في علم المدن الإسلامية، الاجتهاد، ع: 7 /1990، ص: 103-111.

[10] **انظر**: مصطفى بن حموش، الفيلا أو أيديولوجية الاستعلاء، جريدة الشعب، ع 7969/ 1989م، مرجع سابق، ص: 7.

[11] لقد نادى (حسن فتحي) بالعودة إلى استخدام الطوب اللبن عوضا عن الإسمنت، ليس لمجرد الولع بالقديم البدائي، لكنه اختارها في إطار الاستخدام العلمي الدقيق للمواد الخام المناسبة، والتي هي متاحة وفي متناول اليد في البيئة والرخيصة، ولأنها المادة الأكثر رعاية للإنسان، فهي أقل نقلا للحرارة من الإسمنت وأكثر حماية لصحة الإنسان. و لقد مارس حسن فتحي تجاربه في فوائد الطين والخشب والحجارة للبرهان على آرائه، و في منشآته الطينية في مدينة (القرنة) أثبتت فوائد الطين في عمارة الفلاحين، الذين أقاموا بيوتهم ومنشآتهم العامة باللبن والآجر بعيدا عن كل أدوات العصر، بل ذهب (حسن فتحي) إلى أبعد من ذلك لإثبات نظريته في تحاشي الإسمنت والحديد والتقنيات العصرية، حتى في بيوت المدينة وعمارات الصفوة، حيث أنشأ ونفذ العديد من المنشآت خارج الريف وكان الكثير منها قصورا للصفوة، مثل: منزل سعيد، وبيت سيف النصر، وبيت الرهبان، وبيت الأصطبولاري، ومصنع السيراميك، والمدرسة الابتدائية في (إدفو) و(فارس) بمصر... الخ. أليس هذا أفضل من استيراد تكنولوجيا غربية باهضة التكاليف وغير ضرورية وغير ملائمة مناخيا. **انظر**: د. عفيف البهنسي، ما بعد الحداثة والتراث في العمارة العربية الإسلامية، مرجع سابق، ص: 82.

[12] **انظر**: محاضرة د. محمد الطيب عقاب (بمناسبة اليوم العالمي للتراث)، لمحات عن المسكن الأصيل بمدينة الجزائر، جريدة (الشعب)، الأحد والثلاثاء 25-27/ 1999.

[13] ولد المهندس المعماري حسن فتحي سنة 1900 بالإسكندرية بمصر من أسرة ثرية، تحصل على دبلوم العمارة من كلية الهندسة جامعة القاهرة سنة 1926، اشتهر بطرازه المعماري الفريد الذي استمد مصادره من العمارة الريفية، ومن البيوت والقصور بالقاهرة القديمة في العصرين المملوكي والعثماني، تعد مدينة القرنة التي تتسع لـ 3200 أسرة والتي بناها بجنوب مصر سنة 1946 جزءا من تاريخ البناء الشعبي الذي أسسه بما يعرف عمارة الفقراء، وقد نالت هذه المدينة شهرة عالمية، وقد ظهر تأثر المدينة بالعمارة الإسلامية حيث كانت للقباب تصميمها الفريد والتي استخدمت بدلا من الأسقف، وتم تخصيص باب إيضافي بالمنزل للماشية، كنوع من أنواع العزل الصحي، وشيدت ثلاث مدارس للتعليم العام والتعليم المهني الحرفي، مع عدم إهمال الجانب الرياضي والترفيهي والديني الذي مزج فيه الفن المعماري الطولوني بالفن الفاطمي. عمل حسن فتحي كخبير لدى منظمة الأمم المتحدة، له أعمال وإنجازات معمارية متنوعة ورائدة، نال العديد من الجوائز والأوسمة المحلية والدولية والعالمية، كما تقلد عدة مناصب شرفية سامية، من أقواله: ((هناك 800 مليون نسمة من فقراء العالم الثالث محكوم عليهم بالموت المبكر بسبب سوء السكن، هؤلاء هم زبائني)). وقوله: ((كمهندس، طالما أملك القدرة والوسيلة لإراحة الناس فإن الله لن يغفر لي مطلقاً أن أرفع الحرارة داخل البيت 17 درجة مائوية متعمدا)). وقوله: ((الحداثة لا تعني بالضرورة الحيوية، والتغير لا يكون دائما للأفضل)). وقوله: ((شخص لا يستطيع بناء منزله ولكن عشرة أشخاص يستطيعون بناء عشرة منازل لهم)). وأيضا: ((إن الله خلق في كل بيئة ما يقاوم مشكلاتها من مواد، وذكاء المعمارى هو فى التعامل مع المواد الموجودة تحت أقدامه لأنها المواد

التى تقاوم قسوة بيئة المكان)). توفي عن عمر يناهز 89 سنة عام 1989م. **انظر**: الموسوعة الحرة وكيبيديا، النت.

[14] **راجع**: حسن فتحي، عمارة الفقراء، ترجمة د/ مصطفى إبراهيم فهمي، مطبوعات كتاب اليوم، الطبعة الثانية 1991م.

[15] إن الهندسة المعمارية الغربية تعكس الإيديولوجية الطبقية أو الاستعلائية، فالفيلا كنموذج معماري غربي، تجسد الإيديولوجية الغربية التي نبعت من الطبقية وانفراد الطبقة الراقية بأسباب العيش المرفه، و بالمقابل تخبط الطبقات الشعبية السفلى في المشاكل اليومية للحياة الحضارية، ما يعبر عن ظروف اجتماعية خاصة أساسها عدم التوازن الاجتماعي.. وإذا كانت العمارة العمودية هي رمز العمران العصري، فإنها كذلك تعبير صادق لرغبة المعماريين في منح تلك الحياة الإقطاعية الاستعلائية لكلأفراد المجتمع بما فيهم البروليطاريا، وذلك بعدما كانت من احتكار السادة النبلاء. **انظر**: مصطفى بن حموش، الفيلا، مرجع سابق.

[16] إن مفهوم الحرمة له دلالة قصوى في إدراك وتصميم الفراغ الإسلامي الذي يغشى حسه كل فراغ ويستوحي منه العناية بصيانة الحرمات التي تستوجب الاحترام والوقار حسب تعاليم الإسلام الحنيف.

[17] على سبيل المثال نلاحظ في العمارة الإسلامية استبعاد بيت الخلاء عن وسط الدار، وكذلك تسهيل عملية الوضوء بما يسمى الميضأة، وكذلك نجد جميع العمائر الإسلامية وتصاميم المدن متجهة للقبلة بشكل دقيق...

[18] **انظر**: د. محمد سيد محمد، الغزو الثقافي والمجتمع العربي المعاصر، ص: 171، دار الفكر العربي القاهرة، ط1949/1م.

[19] انظر: سليم قلالة، التغريب في الفكر والسياسة والاقتصاد، ص: 103، دار الفكر دمشق، ط1988/1م. وفي نفس السياق أورد (**سيرجلاتوش**) في كتابه (تغريب العالم) أقوال بعض الغربيين المعماريين، تعبر عن مدى حرص الغرب على تدمير و كسر العصبيات التقليدية التي توحد أفراد العائلة الممتدة مع مجموع أفراد السكان، والمثال الحي على ذلك أن الشركة المعمارية للكاب الأخضر في السنغال ذات التمويل الفرنسي عندما ابتدأت ببناء المساكن، رفعت شعار الإعلانات التالي : "إذا ما استأجرتم شققا أوروبية يمكنكم أن ترفضوا استقبال الأقارب الذين يريدون النزول عندكم". لقد أورد (عثمان سعدي) في الفصل الحادي عشر (الأصالة في العمارة و تخطيط المدن) من كتابه: التعريب في الجزائر كفاح شعب ضد الهيمنة الفركفونية، ص: 163-181، نماذج وأمثلة عن دور المهندسين الفرنسيين في تشويه المشاريع التنموية في الجزائر، الذين لجأنا إليهم في تنفيذ مشاريعنا الكبرى، لبناء جامعاتنا ومجمعاتنا السياحية وتخطيط مدننا.

[20] **راجع**: القسمة وأصول الأرضين (كتاب في فقه العمارة الإسلامية)، تأليف: الشيخ أبي العباس الفرسطائي النفوسي، تحقيق وتعليق: الشيخ بكير بن محمد الشيخ بالحاج، د. محمد صالح ناصر. **راجع أيضا**: مقدمة ابن خلدون، ج: 1. للاستزادة في الموضوع.**راجع**: يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني ميزاب، ص: 86-92. الجدير

بالذكر أن منظمة اليونسكو قد صنفت هذه المدن ضمن التراث المعماري العالمي الذي يجب المحافظة عليه.

[21] لقد اتجه أكثر المعماريين نحو الظاهر الزخرفي، فرأوا العمارة العربية من خلال الزخارف، و لذلك نجد الكثير من المنشآت الحديثة ادعت الأصالة، بإضافة هذه العناصر الزخرفية على بناء حديث مستوحى من العمارة الحديثة، بدل الاتجاه نحو العمارة الهوية بدءا بالعمارة الريفية التي ينشئها الفلاحون الفقراء، وهذا ما كان يدعو إليه المعماري (حسن فتحي) منذ الستينات.

[22] **انظر**: سليم قلالة، التغريب في الفكر والسياسة والاقتصاد، مرجع سابق، ص: 103.